(٩)

الإسلام والكون

كان عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن معجزة قال لسائليه «حسبكم الكون معجزة. انظروا إلى الأرض فهى من عجائب صنع الله. وآية على وجوده وعظمته. خلقها لكم وسلك لكم فيها سبلا. تمشون فى مناكبها وتأكلون من رزقه. ثم انظروا الى السحاب المسير فى الآفاق يسح بمائه فيحيى أرضا موتا، ويخرج منه زرعا ونخيلا وأعنابا. ثم انظروا إلى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى سائغا للشاربين. ثم انظروا فى أنفسكم فأنكم معجزة. لقد كنتم صغارا، ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا. ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة أشرف الصفات. صدق رسول الله ففى الكون معجزة وأى معجزة أكبر من معجزة الكون. وكيف يرد رسول الله على أناس ضاقت عقولهم وعميت بصيرتهم حتى إذا رأوا آية قالوا سحر مستمر.

ويحدثهم رسول الله ويدعوهم إلى نظرة عميقة تريهم عظمة الكون وجماله وعظمة الخالق وقدرته، فيقول لهم انظروا إلى الكون ففيه معجزة، ولكن أنى يفقهون وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ

حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (الإسراء ٩٠ـ٩٣).

هكذا كان حديث الناس يريدون معجزة تثبت وجود الله، وتثبيت صدق دعواه ويريد الرسول أن يريهم الدليل على ذلك ملموسا يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم فيقول لهم: «حسبكم الكون معجزة. انظروا الى الأرض فهى من عجائب صنع الله» كيف لا وتلك الأرض الكروية التى أبدع الله خلقها وأعطاها القدرة على الحركة الدائمة بتلك السرعة الهائلة كما أخبرنا سبحانه وتعالى فى قرآنه المعجز :

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ (النمل ٨٨)

سبحانك ربى تخبرنا عن دوران الأرض فتضرب المثل بالجبال الراسيات تحسبها جامدة، وهى فى الحقيقة تمر مر السحاب. ومما لا شك فيه أن تتحرك الجبال وحدها والكرة الأرضية ثابتة ساكنة.

فتلك الأرض تدور حول نفسها وهكذا يكون يومنا ليلا ونهارا وفى ظلام الليل آية وفى وضوح النهار آية أخرى وسبحانه حين يقول:

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

(آل عمران ١٩٠)

وتدور الأرض دورة أخرى حول الشمس فى كل عام مرة وهكذا تكون فصولنا الأربعة من حر إلى برد إلى ربيع ثم إلى خريف. حتى إذا رفعنا رؤوسنا إلى السماء، وقد رفعت بغير عمد ذلك تقدير العزيز العليم. وإذا بنا نردد قوله سبحانه وتعالى:

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

بسم الله الرحمن الرحيم

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ
الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(سورة النمل)

obeikandl.com

قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

(فصلت ٩ـ١٢)

ثم نقول للمشركين مرة أخرى ما يقوله سبحانه وتعالى:

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

(النازعات ٢٧ـ٣٣)

سبحان الله ألا يدعو إلى التفكير فى الله ذلك الكون بعظمته واختلاف ليله ونهاره واختلاف حره وبرده. ألا يشعرنا بوجود الله ذلك القمر الذى يبدأ هلالا ثم يستدير ثم يعود كالعرجون القديم:

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(يس ٣٩ـ٤٠)

لقد استطاع ابراهيم عليه السلام أن يعرف ربه وخالقه من نظرة إلى النجوم، ثم إلى القمر، ثم إلى الشمس، ثم انتقل من كل ذلك إلى الله الواحد الأحد خالق كل شئ الموجود أبدا، والذى لا يغيب أبدا وجوده دائم، ونوره دائم ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا

أَلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

(الأنعام ٧٤ـ٧٩)

حتى إذا قدر لنا أن ننتهى من التأمل فى الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم كان علينا أن ننظر إلى ما على الأرض من جبال ووديان وأنهار وحيوان وإنسان كل خلق فأبدعت خلقته عندئذ نقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ونردد قوله سبحانه وتعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(الرعد ٣)

ثم فلنتدبر قوله سبحانه وتعالى:

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

(فاطر ١٢)

ثم فلنقف قليلا أما البحار والأنهار وننظر إلى المحيطات والبحيرات الممتلئة بالماء الزاخرة بالحياة تؤثر فيها حرارة الشمس وحركة الهواء فيعملان معا على بخر المياه حتى إذا تجمع البخار فى الطبقات العليا من الجو حيث يتكاثف ذلك البخار، ويكون السحاب فتحمله الرياح الى حيث يشاء الله إلى حيث يسح ماؤه فيحيى أرضا مواتا

فتنبت الأشجار وتكثر الثمار، وتطيب الحياة، ويحدثنا سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فيقول:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

(الروم ٤٨ـ٤٩)

ويقول أيضا جلت قدرته:

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(الأنعام ٩٩)

حتى إذا تركنا الماء ليخرج به نبات كل شئ فلنفكر لحظة فى الحب والنوى وما يخرج منها من أشجارا اختلفت ألوانها وأشكالها وثمارها، فنفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

فلننظر إلى الحب وقد احتوت كل حبة على قصة حياة كاملة لنبات شكله وحجمه وثمره لا تحتاج هذه القصة إلا أن نجد الأرض الطيبة والمياه الصالحة فتظهر الى عالم الوجود.

وإذا كان الشائع فى النبات أن يختار غذاؤه من الماء والأملاح الذائبة فى التربة، ومن الهواء فإذا به يحول هذه المواد الأولية إلى سكر ونشاء نتغذى عليه، وتتغذى عليه سائر الحيوانات فإن من النبات من لا يرضى بهذه الطريقة فى الغذاء فيتغذى على الحيوان كما يتغذى الإنسان، ومن هذه الأمثلة نبات النيبنش الذى يوجد فى جزر الملايو، فورقة

هذا النبات على شكل جرة ذات غطاء، وتتجمع قطرات الماء داخل هذا الوعاء حتى إذا جاءت حشرة استهواها رحيق هذا النبات الحلو المذاق، ووصلت الجرة لترتشف من هذا الرحيق، فإذا بالنبات يحس بهذه الحشرة فيغلق فتحة الجرة بغطائها ثم تبدأ عملية الهضم بأنزيمات خاصة يفرزها هذا النبات لإذابة هذه الحشرة فتكون سهلة الإمتصاص الذى إذا انتهى فتحت الجرة ثانية لتستعد لإستقبال الفريسة الثانية وهكذا.

هناك نوع آخر من النبات يسمى بالدروزيرا لأوراقه عدد كبير من الزوائد الحساسة التى تفرز مادة لزجة فإذا سقطت حشرة ما على ورقة من هذه الأوراق التصقت بالمادة الرحيقية، وعبثا نحاول الفرار إذ تمتعها تلك الزوائد الحساسة التى تعمل كشباك حول الفريسة وتفرز عليها عصارتها الهاضمة، حتى إذا امتصت الحشرة اعتدلت الزوائد استعداداً للضيف الجديد.

كما أن هناك نبات آخر هو نبات الديونا كل ورقة من أوراقه على شكل مصراعين وعلى سطح كل مصارع أشواك دقيقة. فإذا ما وقفت حشرة على الورقة انطبق المصراعان وانغرزت الأشواك الحادة فى جسم الفريسة فتمزقها وبهذا تسهل عملية الهضم ثم الإمتصاص.

ثم ينتقل بنا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الأنعام. كيف خلقها الله وصورها. نستقى منها لبنا سائغا للشاربين. أفلا ترى فى ذلك اللبن معجزة، وفى تكوينه من المرعى معجزة تدل على قدرته سبحانه وتعالى فجدير بنا أن نستبطن الأمر فلا ننظر تلك النظرة السطحية التى تخفى جمال الباطن وعمقه وعظمته.

وهناك فى مملكة الحيوان معجزات استمعوا الى قوله تعالى:

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

(النور ٤٥)

ومن منا لم ينظر إلى عالم الحيوان، وما فيه ولم يتأمل ما خلق الله وأبدع فى خلقه. فلينظر من لم ينظر إلى عالم النمل، وكيف يسعى ويجد ليختزن من حره لبرده وكيف يطير النحل بين الأزهار ليرتشف من رحيقها ما يقتات به وتقتات به صغاره. ثم فلينظر من لم ينظر إلى عالم الطير، وكيف تطير من غصن إلى غصن باحثة عن أكلها وغذائها فلعله يرى فى هذا وذاك دقة المخلوقات ودقة الصانع.

ولعله يرى فى جمال الخلق جمال الخالق، وفى عظمة الكائنات عظمة الخالق الواحد.

تعالوا ننظر إلى هذه الحيوانات كيف تعيش. وهل لها حس كما لنا حواس وهل لها قلوب تدب بالعاطفة والحب ما تدب قلوبنا. وهل تستطيع أن تفكر كما نفكر، وهل هناك تعاون بين أفرادها كما هو الحال بيننا، ويجيب القرآن الكريم عن ذلك فى وضوح تام واختصار حلو جميل فى قوله تعالى فى سورة الأنعام:

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ (الأنعام ٣٨)

فلو نظرنا إلى النحل، وكيف تسيطر الملكة على الخلية فهى القوية الحاكمة فهى التى تضع البيض وعلى باقى الرعية الخدمة التامة وحماية الملكة:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

(النحل ٦٨ـ٦٩)

وإذا كان هذا هو الحال فى دنيا النحل ففى مملكة النمل ما هو أغرب وأعظم فهناك

الملكة يحيط بها أفراد الخلية من شغالة وجنود. تقوم الشغالة بالخدمة العامة وإحضار الغذاء وتربية الصغار، ولا عمل للذكور إلا تلقيح الملكة والدفاع عن المملكة.

ومن النمل أنواع كثيرة فمنها الرحال الذى ليس له مكان خاص فيرحل فى جماعات من مكان إلى مكان آخر، ومنها النمل الزارع الذى يبذر بذور الفطر ثم يرويها بما يجلب، لها من ماء فى فمه حتى إذا نبت الحب ونمى الزرع تتغذى عليه النمل كما تتغذى الماشية على البرسيم.

وأنه لمن المدهش حقا أن نرى فى مساكن النمل حشرات المن التى تعيش وإياها عيشة المعاشرة، ويحيون سويا حياة التكاثف والتساند فيمدها المن برحيقه وشمعه، كما تمدنا الأبقار باللبن وذلك أجرا لإيوائه وثمنا غاليا يدفعه لأمنه وسلامته.

وأن أبدع ما فى مملكة النمل تلك المساكن التى يبنيها تحت الأرض بها حجر خاصة، منها حجرة العرش حيث تسكن الملكة لتضع البيض، وحجر أخرى لتربية الصغار وحجر للتخزين ويوصل بين الحجرات ممرات جميلة منسقة، ويحرس الجنود باب المملكة كل فى عمله بنظام غريب بديع يدل على فهم وإدراك.

وما حديث تلك النملة الى أهلها وعشيرتها عندما مر سليمان عليه السلام بوادى النمل يخاف على أحد:

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

(النمل ١٨)

ولعل من أهم الغرائز الموجودة بين الحيوانات هى غريزة حب القتال وحسب الاستعمار مثلها فى الحياة، كمثل كثير من الدول التى نسمع عن غدرها وقسوتها

ولعل أقرب الأمثلة لهذا هو ما نشاهده فى نوع من أنواع النمل لا يستطيع أن يخدم نفسه، ولا يختزن قوته فى حره لبرده لذلك فهو يلجأ إلى الحرب ليتخذ من أسراه عبيدا يسهرون على خدمته وراحته. وكثيرا ما يهاجم أنواعا أخرى من النمل من تلك التى تعتمد على نفسها فتزرع وتختزن ما تأكل فتبدأ الحرب بين الجيش المهاجم وجنود المستعمرة. ولما كان أفراد الجيش المهاجم يمتازون بالجرأة والشجاعة والقدرة على القتال كان النصر حليفهم، وسرعان ما يتقهقر العدو ويستولى الجيش المهاجم على المستعمرة فينقل صغارها الى موطنه، والتى عندما تكبر تبدأ حياتها كما لو كانت فى مسكنها الأصلى، وبين أهلها وعشيرتها تخدم أسيادها بأمانه، وكما يقال أن هؤلاء السادة لا يصيبون أسرارهم أو خدمهم بسوء حتى أنهم قد يدخلون حـــربا شعـواء إذا ما اعتدى عدو على أحد الخدم.

ثم فانتقل إلى موضوع آخر يرينا الكثير من التشابه بين طباعنا وطباع الحيوانات إلا وهو كيف يختار الحيوان أليفته وشريكته فى الحياة، وكيف يتنافس أكثر من حيوانين من أجل أنثى واحدة.

فهناك فراش يقال له قرن الوعل تتجمع الذكور حول الأنثى كل يتقدم لخطبتها يطير حولها بأجنحته مظهرا هيامه وغرامه، ولكن الأنثى تختار من خطابها واحدا ترضاه ويجوز قبولها فيتراجع الباقون ويختفون.

وهناك نوع من الخنافس يتسلح الذكر بقرنين يستعملها للقتال نصرا للحب بين المحبين المتنافسين، وكثيرا ما يتقدم إلى الأنثى الواحدة أكثر من ذكر واحد يبدأ بينهما قتال وحشى يفوز بالأنثى من يصمد فى القتال وينتصر.

كما أن هناك نوع من الخنافس يعيش الزوجان فى مسكن واحد، وويل لمن يقتحم عليهما المسكن فيقاتله الذكر وتساعده الأنثى فى هذا القتال فهى تحرس مدخل العش وتدفع زوجها من الخلف تبث فيه الحمية، وتشجعه إلى القتال فى سبيل وحدة الأسرة واستقلال العائلة.

والآن ننتقل إلى الطيور وما حنو الطير على صغاره إلا أمرا معروفا لنا جميعا.

إننا جميعا قد شاهدنا دقة بناء العش وحسن اختيار مكانه. وكيف يتعاون كل من الذكر والأنثى فى ذلك حتى إذا أكتمل بناء العش، ووضع البيض تناوب الذكر والأنثى الرقاد والحضانة كما تتناوبان الرعاية والحراسة.

ولعل من أغرب طباع الطير محاكمة بعضها البعض، فقد شوهد فى الغربان بأنه إذا اعتدى غراب على آخر كأن يسلبه غذائه صرخ الغراب المعتدى عليه بصوت ذا نغمة معروفة فسرعان ما تتجمع الغربان حول المجرم على هيئة محكمة وإذا بالمعتدى يجثو على الأرض باسطا جناحيه طالبا الرأفة والرحمة من هيئة المحكمة. ولكن المحكمة تحكم بالإدانة يتبعها العقاب مشمولا بالنفاذ.

وما العقاب إلا بالضرب بالمناقير حتى يموت المعتدى أو يشرف على الموت.

ولعل من طباع الطير الغريبة أيضا أنها تترك موطنها الأصلى، إذا ما ضاق بها الحال وصعبت المعيشة هناك كقلة الغذاء أو برودة الجو أو غير ذلك من الأسباب، فتهاجر إلى بلد ناء لا تعبأ بطول الطريق، وما يعترضها من بحار ومحيطات حتى تصل الى ما تصبو إليه من غذاء وجو يطيب لها الإقامة فيه، وليس الغريب أن ترحل هذه الطيور ولكن الغريب أنها تعود إلى موطنها الأصلى إذا ما شعرت ـ والله يعلم كيف تشعر بذلك ـ بأن الغذاء هناك أصبح موفورا والحياة أصبحت سهلة ميسورة فتذهب من حيث جاءت فتجد ما شعرت به حقيقة واقعة لا وهما وسرابا.

هذا قليل من كثير فلنتدبر قوله سبحانه وتعالى:

إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ (الجاثية ٤)

ثم أخيرا، وليس آخرا بعد أن ننتهى من التأمل فى مخلوقات الله صغيرها وكبيرها من نبات وحيوان وجماد، كان من الواجب علينا أن ننظر الى أنفسنا فنحن معجزة وأى معجزة أكبر من خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ويدعونا القرآن الكريم فى أول سورة أنزلت على سيد الخلق أجمعين فيقول:

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

(سورة العلق ١ـ٥)

ويحدثنا القرآن الكريم فى سورة أخرى:

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

(غافر ٦٦ـ٦٧)

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(سورة يس)

obeikandl.com